الفصل الثاني

الخلفـــاء

لما ثقلت العلة على الخليفة المكتفى فى عام ٢٩٥ هـ — ٩٠٧ م كان الوزير أبو أحمد العباس بن الحسن راكباً من داره يوماً ومعه ، كما جرت العادة ، أحد الكتاب الأربعة الذين يتولون الدواوين ؛ فشاوره فيمن يُرَشَّح للخلافة بعد المكتفى ، وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز ، فأجابه الكاتب ، وهو أبو الحسن على بن محمد بن الفرات الذى صار وزيراً فيما بعد ، أنه يجب ألا يولى فى هذا الأمر من عرف دار هذا ونعمةَ هذا وبستانَ هذا ، ومن لقى الناس ولقوه ، وعرف الأمور وحنَّكته التجارب ؛ فقال الوزير : صدقتَ والله يا أبا الحسن ، فمن نقلد ؟ فأشار ابن الفرات بتقليد جعفر بن المعتضد (الخليفة المقتدر) ، « فإنه صبىّ لا يدرى أين هو ، وعامة سروره أن يُصرَف من المكتب » ، فمالت نفس الوزير إلى ذلك وعمل على تقليد المقتدر ، وكان صبيا فى الثالثة عشرة(١) .

ونظراً لأن المقتدر كان صغيراً ، فقد كان انتخابه للخلافة انتخاباً غيرَ شرعىّ ، ولقد ذُبح أحد القضاة ، لأنه أطاع ضميره حين قالوا له : تبايع المقتدر ، فقال : هو صبىّ ، ولا تجوز المبايعة له(٢) .

ولكن الجماعة المتآمرين أخطأوا التقدير ، فإن أمّ المقتدر ، وهى أمّ ولد رومية ،

---

(١) كتاب العيون ص ٥٩ ب ، وكتاب الوزراء ص ١١٤ — ١١٦ .

(٢) صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعيد القرطبى ، طبعة دى غوى ، ليدن ١٨٩٧ ص ٢٨ .

قبضت على زمام الأمر هي وأولياؤها بيد القوة والحزم ؛ فكانت تولّى وتعزِل ، وحالت بين القوم وبين انتهاب ما في بيت المال . ومما يدل على قوة عزيمتها وبعد نظرها طريقتُها في العناية بمراقبة ما كان يقرؤه أبناؤها : يحدثنا الصولي أنه كان يوماً عند الراضي ، يقرأ عليه شيئاً من شعر بشّار ، وبين يدي الراضي كتبُ لغة وكتب أخبار ، إذ جاء خَدمٌ من خدم السيدة جدته ، وهي شَغَب أم المقتدر ، فأخذوا جميع ما بين أيديهما من الكتب ، فجعلوه في منديل أبيض كان معهم ومضوا ؛ فوجم الراضي واغتاظ ، فسكّن منه أستاذُه ، وأفهمه أنهم أرادوا أن يمتحنوا الكتب ، ولما مضت ساعتان أو نحو ذلك ردّوا الكتب بحالها ، فقال لهم الراضي : قولوا لمن أمركم بهذا : قد رأيت هذه الكتب ، وإنما هي حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء ، ومن كتب الله بالنظر في مثلها ، وينفعه بها ، وليست من كتبكم التي تبالغون فيها مثل عجائب البحر وحديث سندباد والسنّور والفأر ؛ فخاف الصولي أن يؤدّي الخدمُ قولَه ، فيقال : من كان عنده ؟ فيذكرونه ، ويلحقه من ذلك مكروهٌ ؛ فقام إلى الخدم ، فسألهم ألا يعيدوا قولَه ، فقالوا : والله ما نحفظه ، فكيف نعيده[1] ؟ وقد لبث المقتدر على عرش الخلافة زهاء خمسة وعشرين عاماً ، تحت جناحي أمّه ، وقد خلع في أثناء هذه المدة مرتين ، فكان يثور عليه بعض قواده ويزيلونه عن سرير مُلكه يوماً أو يومين ، ثم يعود إليه ؛ ولم يخرج في جيش ليقاتل إلا مرة واحدة ، وقد قُتل فيها ؛ وذلك أن قوّاده طلبوا منه أن يخرج معهم لمحاربة مؤنس ، فأبى ؛ وما زالوا به حتى خرج كارهاً ؛ وقد جَهِدَت به أمّه ألا يخرج ، وكشفت عن ثدييها ، وبكت ، ولكن غلب القضاء ، فخرج وعليه البُردة النبوية التي توارثها الخلفاء ؛

(١) كتاب الأوراق للصولي ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٨٣٦ ص ٨ — ٩ .

ووافى أصحابُ مؤنس ، فضربه رجلٌ منهم من خلفه ضربة سقط منها إلى الأرض ، فأضجعه ، وذبحه بالسيف ؛ وسُلبت ثيابه والبُردة فيها حتى سراويله ؛ وتُرك مكشوفَ العورة إلى أن مرّ به رجلٌ من الأكَرَة ، فستر عورته بحشيش ؛ وكان المقتدر رَبْع القامة ، إلى القصر أقرب ، دُرّيّ اللون ، صغير العينين ، أحور ، حسن الوجه واللحية أصهبهما[١] ؛ وكل ما يحكى عنه يدل على الهدوء وحب الخير وسلامة الصـدر : كان الوزير أبو الحسن على بن عيسى يُطلِق فى كل شهر فى جملة نفقات المطبخ لثمن المسك نحو ثلاثمائة دينار ؛ وكان يوماً عند الخليفة فدار بينهما الحديث ، وعلم الوزير من سياق الكلام أن الخليفة لا يأكل طعاماً فيه مسك ، ولا يُطرح له من المسك إلا اليسير فى الخشكنانج ؛ ثم نهض الوزير ومشى للخروج ، فأمر المقتدر بالله برده ، وقال له : أظنك تنصرف الساعةَ ، وتفتح نظرك باحتضار المتولّى للمطبخ وموافقته على ما جرى بيننا فى أمر المسك ، وتُسْقِطه ، فقال : كذلك هو يا أمير المؤمنين ! فضحك الخليفة وقال : أحب ألا تفعل ذلك ، فلعل هذه الدنانير تنصرف فى أقوات ونفقات قوم ، ولا أريد قطعَها عنهم[٢] ؛ وكان المقتدر كثير الشراب[٣] .

ـ ثم انتُخب أخوه القاهرُ خليفةً بعده ؛ وكان القوم قد اتّعظوا بحكم المقتدر ، فعيّنوا القاهر ، وقالوا : هو كهل ، ولا أمّ له ، فنرجو أن تستقيم أمورُنا معه[٤] .

وكان القاهر أيضاً مربوعاً ، حسن الجسم ، أبيض ، تعلوه حمرة ، أمعن ، وافر

---

(١) التنبيه والإشراف المسعودى طبعة دى غويه سنة ١٨٩٤ ، ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، ومسكويه ج ٥ ص ٣٧٩ ؛ وعريب ص ١٧٦ والصفحات التالية ؛ وكتاب العيون ص ١٣٠ ا .

(٢) كتاب الوزراء ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبى ؛ انظر المقدمة الإنجليزية التى كتبها آمدروز لكتاب الوزراء للتقدم ، ص ١١ .

اللحية ، الخ[1] . وفى سنة ٣١٧ هـ — ٩٢٩ م قامت ثورة قُصِد منها خلعُ المقتدر وتنصيب أخيه القاهر مكانه فأخذت ، وحُمِلَ القاهر إلى أخيه فاستدناه ، وجعل يُهدِّئ من روعه ، ويلتمس له العذرَ ، ويُبرِّئه من إثم المؤامرة ، وهو يقول : نفسى نفسى ، الله الله يا أمير المؤمنين ! يرجو أخاه أن يُبقى على حياته[2] . وكان القاهر أهوج ، شديد الإقدام على سفك الدماء ، محبا للمال ، قبيح السياسة ، قليل الرغبة فى اصطناع الرجال ، غير مفكر فى عواقب الأمور ؛ وكان مولعاً بالشراب ، لا يكاد يصحو من السكر ، وكان يسمع الغناء ، ومع ذلك حرّم على الناس الخمر والقيان[3] ، ولكنه وُفِّق إلى القضاء على مؤنس القائد رغم ما كان لمؤنس هذا من سلطان عظيم[4] ، كما أنه وفّر كثيراً من المال ؛ ولما طُلِب منه أن يشهد على نفسه بالخلع أبى أن يُحِلّ الطالبين من بيعته ، فخُلِع وسُملت عيناه ، ولم يُسْمَل قبله أحد من الخلفاء وملوك الإسلام[5] . وسَمْل الأعين هذا عادة أخذها المسلمون عن البوزنطيين ، ثم عاش القاهر بعد خلعه سبعة عشر عاماً فى دار الخلافة ؛ حتى نقله المستكفى منها ، وكان قد بلغ به الضرّ والفقر إلى أن كان مُلتفًّا بقطن جُبّة ، وفى رجله قبقاب خشب[6] . وقد خرج فى يوم جمعة إلى جامع المنصور وغطى وجهه ، ووقف فعرّف الناسَ نفسه وسألهم أن يتصدّقوا عليه ، فقام إليه أحد الهاشميين فأعطاه ألف درهم وردّه إلى داره .

ولما عُيِّنَ الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ هـ = ٩٣٣ — ٩٤٠ م) ابن أخى

---

(١) التنبيه للمسعودى ص ٣٨٨ ؛ وكتاب العيون ص ١٤٢ ب .

(٢) كتاب العيون ص ١٢٤ ب .

(٣) مكويه ، ج ٥ ص ٢٤ ؛ التنبيه ص ٣٨٨ ؛ عريب ١٨٠ .

(٤) مكويه ، ج ٤ ص ٤١٩ (٢) .

(٥) التنبيه ص ٣٨٨ .

(٦) ابن الأثير ، ج ٨ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

القاهر خليفة كان له من العمر خمسة وعشرون سنة . وكان أسمر ، أعين ، دون الأقنى ، مسنون الوجه ، خفيف العارضين واللحية ، دحداحاً نحيفاً[١] . وكان محباً للشعر والإنشاد ، ومن أحسن الناس علماً بالشعر ونقداً له ، كما ينقده العلماء ؛ وكان من أطبع ملوك بنى العباس فى الشعر ومن أكثرهم قولا له ؛ وقد ترك لنا من ذلك ديواناً مكتوباً وكان مولعاً بجمع البلور حتى يقول الصولى : وما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضى ، ولا عمل ملكٌ منه ما عمل ، ولا بذل فى أثمانه ما بذل ، حتى اجتمع له من آلته ما لم يجتمع لملك قط[٢] . وقد أولع بهدم القصور فى دار الخلافة وبناء غيرها أو تصييرها بساتين[٣] . وكان الراضى سمحاً ، عظيم العطاء ، واسع النفس ، ينفق ما وجد ؛ ويحكى أنه دخل عليه جماعةٌ من الجلساء ، وهو يهدم شيئاً ويبنى شيئاً ، وكان جالساً على آجرة حيال الصناع ، فأمرهم بالجلوس فى حضرته ، فأخذ كل واحد منهم آجرة لجلس عليها ؛ فلما قاموا أمر أن توزن آجُرة كل واحد منهم ويُدفع إليه وزنُها دراهم أو دنانير[٤] . وكان ابن الأنبارى يتردد إلى أولاد الراضى ؛ ويُحكى عنه أنه مضى يوماً إلى سوق النخاسين ، وجاريةٌ تُعرَض حسنةٌ كاملةُ الوصف ، فوقعت فى قلبه ؛ ثم مضى إلى دار أمير المؤمنين الراضى ، فقال له : أين كنت فعرّفه ، فأمر بشراء الجارية له ، وحملها إلى منزله ؛ فلما جاء إليه وجدها هناك[٥] . ولم يجد أصحاب الراضى فيه من العيب إلا أنه كان يؤثر لذته وشهوته على رأيه ، وأنه كان ، رغم مرضه ، لا يحتمى ، وكان إذا وصف له أطباؤه شيئاً لا يستعمله ، وإذا أكل

---

(١) كتاب العيون ص ١٨٤ ب ، والتنبيه للمسعودى ص ٣٨٨ .

(٢) الأوراق للصولى ص ٢٧ . (٣) المنتظم ص ١٥١ ا .

(٤) نفس المصدر ص ١٥١ ا — ب نقلا عن الصولى .

(٥) المنتظم ص ٦٥ ب .

الشيء الضار لم يُنْدِلهم[١] ؛ ومات وهو فى الثانية والثلاثين من العمر[٢] . وفى آخر علّته أخذ فى قضاء ديونه ، وتقدّم بعمل المُغْتَسَل والتابوت ، واختار لنفسه ثياباً لكفنه ، وعزلها فى سفط ، وكتب رقعة فيها : هذه جهاز الآخرة[٣] . ولكن عهده لم يَسْلَمْ من سفك الدماء ؛ فقد احتال على الوزير ابن مقلة بعد تركه الوزارة ، حتى قبض عليه وسجنه . وقبض على جماعة من أهله وأقاربه ممن سعى فى تقليد الأمر لنفسه وبايعة الناس عليه ، فمنهم من قتله ، ومنهم من ضربه وسجنه ، فمات فى سجنه ، ومنهم من استتر طول مدته[٤] .

ثم ارتقى عرشَ الخلافة بعده أخوه المتّقى ، وهو فى السادسة والعشرين من العمر ؛ وكان رَبْعَةً دُرِّىَّ اللون ، حسن الوجه ، أبيض ، أشهل ، مستدير العينين ، مقرون الحاجبين ، قصير الأنف ، فى شعره شُقْرَةٌ وجُعُودة[٥] . ولم يشرب النبيذ قط ، وكان يتعبّد ويصوم ، ولم يتخذ جلساء له ، وكان يقول : المصحف نديمى ولا أريد جليساً غيره[٦] ؛ ولكنه كان رجلا لم يفارقه البؤس ، فلم يزل فيه إلى أن مات ؛ فمن ذلك أنه لما أريد أن يُعْذَر له ، وهو صغير ، عُمل له كلُّ شيء حسن ؛ فكان فيما أُعِدَّ له عشرُ وصائف المذَبَّات وكيزان الماء ،

---

(١) الأوراق الصولى ص ٥٥ ، وكتاب العيون ص ١٨٢ ب ، نقلا عن ذُكاء ، مولى الراضى ، وذلك من طريق الفرغانى الذى كان ذكاء يحكى له بعض الحكايات . انظر مثلا ص ٢١٥ ا — ٢١٥ ب .

(٢) كتاب العيون ص ١٨٤ ا .

(٣) نفس المصدر ص ١٨٣ ا .

(٤) نفس المصدر ١٦١ ب ، ١٨٤ ب — ١٨٥ ا ، وكتاب الأوراق ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٥) كتاب العيون ص ٢٢١ ا ، وكتاب التنبيه ص ٢٩٧ ، والمنتظم ص ٦٦ ب .

وأمر بأن ينظّموهن ويزبّوهن ، فأدخلوا قبل أن يُنذَر له بليلة الحمّام ، فسقط عليهن ، فما أفلتت منهن واحدة ، فكان هو يُختن وأولئك يُدفَنّ ؛ ويقال إنه منذ نشأ ما جُعل برسمه خادم لحضانته إلا مات ، فكان الخدم إذا عُرضت خدمته عليهم استعفوا ؛ وقد ركب مع ابن رائق يوماً فى رحبة الجسر ، فاجتمع الناس يدعون له وازدحموا للنظر إليه ، فانقطع الكرسى وسقطوا إلى دجلة ، وهى زائدة ، فهلك فى ذلك اليوم عالمٌ عظيم من الأولياء والنساء والصبيان[1] . وظل البؤس حليفاً له بعد ارتقائه العرش ، فهو أول خليفة ترك « مدينة السلام » خوفاً وطلباً للنجاة ، ولحق بالحمدانيين ، وظل يتنقل معهم فى الجزيرة ، وهم يُهزَمون مرة بعد أخرى ؛ وقد أشار عليه الإخشيد محمد بن طُغج ، بعد أن كتب إليه يستقدمه ، بأن يسير معه إلى مصر والشام ، ويكون بين يديه ، فلم يفعل[2] . وقد اطمأن إلى مواثيق القائد التركى توزون ، وأمِن جانبه بعد أن استوثق منه مرة بعد أخرى ؛ ولكن توزون غدر به لأجل ستمائة ألف دينار أخذها من أحد طالبى عرش الخلافة ، فقبض عليه وخلعه ، وأمر بإحضار الجارية الشيرازية حُسْن ، فتولت سَمْلَه بيد غلامها السندى وعاش المتقى بعد خلعه أربعاً وعشرين سنة ، ومات بداره[3] .

ثم خلفه المستكفى بعد أن تآمر عليه مع توزون ، وسفرت بينهما حُسْن الجارية الشيرازية ، فارتقى المستكفى عرشَ الخلافة بمعاونة هذه المؤامرة ؛ وكانت أمه أمّ ولد رومية تسمى غُصْن[4] ؛ وكان أبيض اللون ، صغير الفم ، حسن الوجه

---

(١) كتاب العيون ص ٢٢٢ ا — ب .
(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ، ٣١٢ — ٣١٣ .
(٣) كتاب العيون ص ٢٢٠ ب ، ويحيى بن سعيد ص ٨٥ ب — ٨٦ ا .
(٤) كتاب العيون ص ٢٢٣ ب ، وكتاب التنبيه ص ٣٩٨ .

والجسم ، بديناً ، أعين ، طويل الأنف ، وافر اللحية ، رَبْعَة ، إلى الطول أقرب ، وقد وخطه الشيب[1] ؛ ونادراً ما كانت تقرّ عينه بمنصبه ، وهو بين امرأة جشعة رفعته بدسائسها إلى منصب الخلافة ، وبين الترك الذين أصبحوا سادة بغداد . وأخيراً جاء بنو بُوَيْه ، فكان أولُ ما طلبه أحمد بن بويه من المستكفى أن يستكتب ابنَ شيرزاد ؛ وكان المستكفى قد حلف ألا يتصرّف ابنُ شيرزاد فى أيامه ودولته ؛ ولما ألحّ عليه ابنُ بويهٍ أجابه إلى ما طلب على كُرْه منه ؛ قال ذُكاء مولى الراضى : وكنت حاضراً ، فأجابه المستكفى على كُرْه منه ، ورأيت عينيه وقد تغرغرتا بالدموع ، لعظم ما ورد عليه من سؤال ابن بويه[2] . ولما جاءوا إليه ليخلعوه رضى أن يخلع نفسه ؛ ولكنه شرط عليهم أن يقطعوا شيئاً من أعضائه[3] . غير أن المطيع أخا المتقى هو الذى خاف المستكفى ، فأمر أن يُسْمل انتقاماً لأخيه ؛ وطلب من يَسْمِله ، فلم يُقْدِم على ذلك أحد إلا خادمٌ صقلبى كان المستكفى قد استخدمه ، ثم وَجِد عليه فى بعض أوقاته فضربه مائتى سوط وحبسه ؛ فكان هذا الخادم حَنِقاً عليه ، فقال للمطيع : أنا أكحله ، وقام بهذه المهمة[4] .

أما الخلفاء المتأخرون فلم يكن لهم عمل بالفعل فى إدارة الدولة ، فطال لذلك حكمهم ؛ فأما المطيع فإنه خلع نفسه غيرَ مُسْتَكرَه ، وترك ولاية الخلافة لابنه الطائع ؛ وذلك أن المطيع كان قد ناله فالجٌ قديماً ، وكان يَسْتره ؛ فظهر وتعذّرت عليه الحركةُ . وثقُل لسانه ، فترك ولاية الخلافة لابنه[5] : ثم خُلِع الطائع بعد

(١) كتاب العيون ص ٢٣٩ ب ، والتنبيه للمسعودى ص ٣٩٩ .
(٢) كتاب العيون ص ٢٣٢ ب .
(٣) نفس المصدر ص ٢٣٨ ب .
(٤) نفس المصدر ص ٢٢٩ ا — ب .
(٥) المنتظم ص ١٠٣ ا .

ثمان عشرة سنة من حكمه ، وقبض عليه . واعتقل بعد الخليفة القادر مكرّماً ، حتى مات بعد اثنتى عشرة سنة[١] ؛ ولا نعرف كثيراً عن هؤلاء الخلفاء ؛ فأما المطيع فكانت أمّه أمّ ولد صقلبية ، وكانت أشهر منه ؛ وتعرف بالصفّارة ، لأنها كانت تأخذ من ورق السوسن وغيره الشيء اليسير ، وتجعله فى فمها ، وتصفر به صفيراً لم يُسمع مثله ، تحكى به كل طائر أو غيره[٢] .

وأما الطائع فكانت عليه ملامحُ الجنس الشمالى ؛ فقد كان أبيض أشقر ، حسن الجسم شديد القوة ؛ ويُحكى أنه كان فى دار الخلافة أيّلٌ عظيم يقتل بقرنه الدوابّ ، ولا يتمكن أحد من مقاومته ؛ فاحتال الطائع حتى أمسك قرنيْه بيديه ، فلم يقدر أن يخلّصهما منه ؛ واستدعى النجار ، فركّب المنشارَ عليهما ، ولما بقيا على يسير قطعهما بيديه[٣] .

وكان القادر من أهل الستر والديانة وإدامة التهجّد بالليل وكثرة البرّ والصدقات ؛ وكان يأخذ ثلثى الطعام الذى يُهيّأ لإفطاره ويقسمه بين جامعيْن كبيرين[٤] . وكان يخضب لحيته الطويلة الكثّة ، ويلبس زىّ العوامّ ، ويقصد الأماكن المعروفة بالبركة مثل قبر معروف الكرخى ، وتربة ابن بشّار ؛ وكان يتخفّى ويغيّر زيّه ، ويخرج ليتعرف أحوال رعيته ؛ وكان صحيح الاعتقاد ، ويحكى أنه صنّف كتاباً فى الأصول على مذهب أصحاب الحديث ؛ وكان هذا الكتاب يُقرأ كلّ جمعة فى حلقة أصحاب الحديث بجامع المهدى ، ويحضر الناسُ سماعَه[٥] .

---

(١) نفس المصدر ص ١٣٠ ا — ب ، ١٤٩ ا .
(٢) كتاب العيون ص ٢٤١ ا .
(٣) كتاب المنتظم ١٠٦ ا .
(٤) نفس المصدر ص ١٣٢ ب .
(٥) نفس المصدر ص ١٣٢ ا ، وطبقات السبكى ، طبعة القاهرة ، ج ٣ ص ٢ .

هذه صورة لبعض خلفاء بنى العباس أيام إدبار دولتهم ؛ وهى تخالف صورة خلفاء الفاطميين الذين أخذ نجمهم إذ ذاك فى الارتفاع . يدّعى الفاطميون أن الإمامة أو الأفضلية صفةٌ خاصة تنتقل من الوالد إلى الولد ، فكفاهم ذلك من أول الأمر مؤونةَ التنازع على عرش الخلافة ؛ ويضاف إلى هذا هدوء السياسة الحازمة وطمأنينتُها فى عهدهم ؛ فمن أمثلة ذلك أن والى الشام كتب مرة إلى المعزّ لدين الله (٣٤١ — ٣٦٥ هـ = ٩٥٢ — ٩٧٥ م) مباشرةً وتخطى من دونه ، فمنع الخليفةُ من ذلك ، وأعاد الكتاب إلى الوالى من غير أن تُفَضّ أختامه . وكان العزيز (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ = ٩٧٥ — ٩٩٦ م) أعظم هؤلاء الخلفاء ؛ وكان أسمر ، طويلا ، أصهب الشعر أزرق العينين كبيرهما ، عريض المنكبين ، عارفاً بالخيل والجوهر[1] ، وكان صيّاداً جريئاً ماهراً ؛ وقد ضرب أول مثل للفروسية العربية بما تنطوى عليه من العفو وكِبَر القلب ، وهى التى أثّرت فيما بعد تأثيراً كبيراً فى الغرب ؛ فقد حدث أن أحد القواد الأتراك خرج على طاعة جوهر عام ٣٦٥ هـ — ٩٧٥ م وهزم جوهراً ؛ فالتجأ هذا إلى عسقلان ، فأدركه التركى وحاصره مدة طويلة حتى طلب الصلح ؛ فأجابه ، وعلّق التركى سيفاً مجرّداً على باب حصن عسقلان ، وخرج جوهر وأصحابه من تحت السيف ، ثم دخلوا إلى مصر ، فلم يرضَ العزيزُ بالصلح ، وسار بنفسه لمحاربة التركى ؛ فهزمه وأسره ، واستنقذه من بين يدى آسريه ، بعد أن كاد يموت ضرباً ولكماً ؛ وأمّنه على نفسه ، ودفع إليه خاتمه ؛ واستسقى التركى ماء ، فأمر العزيز بإحضار قدح شراب جلاب ، فلما أتى بالقدح توقّف التركى على الشرب خوفاً من أن يكون فى القدح سم قاتل ؛ وتبيّن العزيز ذلك ، فأخذ القدح وشربه

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٨١ .

منه ، ثم أعطاه ليشرب ؛ وأفرد له خيمة ، وتقدّم بأن يُحمل إليه جميعُ ما يحتاج إليه ، وحمله على دوابّه ، وأمره بالركوب على مركبه ؛ وسأله عن أناس ممن يأنس بهم ، فالتمس إحضار قوم من أصحابه ، فأتى إليه بهم من بين الأسارى ، ولما رجع العزيز إلى مصر تقدم إلى وجوه دولته وقواده وأمرائه بإكرام التركى وإجلاله[1] .

وأخيراً جاء الحاكم بأمر الله ، وهو الشخصية النادرة المتناقضة ؛ كان الحاكم رجلاً غريباً فى أطواره ؛ فمن ذلك أنه أقام سنين يجلس فى الشمع ليلاً ونهاراً ، ثم عنّ له أن يجلس فى الظلمة ، فجلس فيها مدة[2] . وكان أحياناً يواصل الركوب ليلا ونهاراً من غير فتور ولا سكون ؛ وكان يركب فى نفر من خاصته ليلا ، فتقدّم أصحابُ الأعمال بمصر إلى التجار أن يوقدوا القناديل على حوانيتهم ودورهم ، وأن يتناموا بالليل ، فصارت الشوارع والأسواق فى الليل بمنزلة النهار فى العمارة[3] . وتقدّم بقتل سائر ما فى مصر من الكلاب إلا كلاب الصيد ، لأنها كانت تنبح بالليل إذا عبر الشوارع[4] ، ولما اعتلّ وضعُف عن الركوب اتخذت له محفّة يجلس فيها ويستلقى عليها ، ويحملها أربعة من رجاله ، ثم يدور الليل والنهار[5] ؛ وفى مثل هذه الأحوال كان يأخذ الرقاع والمظالم بشرط ألا يُكتب فيها إلا سطر واحد على وجه واحد ، ويأمر صاحبَ الرقعة أن يأتى له من على يمينه ، وكان يأمرهم ... المكان بعيّنه لهم فى اليوم التالى ، وكان يضع توقيعاته وعطاياه فى كمّه ، ويعطيها لهم يداً بيد . وكان الحاكم ينفق ما استطاع ، ويجزل العطاء

(١) يحي بن سعيد ص ١١٠٤ — ب .

(٢) ابن تغري بردى ، طبعة كلفورنيا ص ٦٢ — ٦٣ .

(٣) يحي بن سعيد ص ١١١٠ .

(٤) نفس المصدر ص ١١١٦ .

(٥) نفس المصدر ص ١١٢٢ — ب

لرعيته ، « وأظهر من العدل ما لم يُسمع بمثله ، ولعمرى إن أهل مملكته لا يزالون في أيامه آمنين على أموالهم غير مطمئنين على نفوسهم ، ولم تمتدّ يدُه قط إلى أخذ مال أحد ، بل كان له جود عظيم وعطايا جزيلة »[1] . أما رؤساء دولته فلم يكن أحد منهم آمناً على نفسه ؛ فكان يفاجئ أعز أصحابه ، ويثب عليه وثوبَ المجنون ؛ فمن أمثلة ذلك أنه قرّب عَتيقاً الخادمَ الأسودَ ، ثم نَمّ عليه ، فقطع يده اليمنى ؛ ثم اختصّ به بعد ذلك أعظم اختصاص ، ولقّبه « قائد القواد ، وأستاذ الأستاذين » ، وكنّاه وقدّمه على سائر أهل دولته ، وكثر ميله إليه وشغفُه به ، وبعد مدة تنكّر له ، وقطع لسانه ؛ ثم أعقب ذلك بالزيادة في عطاياه بالإنعام عليه[2] . وسنتكلم في غير هذا المقام عن مثل هذا التصرف الذى لا ضابط له فيما يتعلق بمعاملته لليهود والنصارى ، وعن زهده ورغبته في الورع ؛ ذلك أنه في آخر الأمر ربّى شعره حتى طال على أكتافه ، وامتنعَ من تقصيصه ، ومن تقليم أظافره ، وغيّر الثيابَ الصوف البيضاء بملابس سوداء ، واستبدل بالعمامة الزرقاء عمامةً سوداء ، وصار يلبس الكسوة الواحدة المدة الطويلة إلى أن تتلبّد بما ينالها ويتداولها من العرق الدائم ، ويعلوها من الغبار المتّصل ؛ وواصل تدوير الصحارى والفيافى ؛ وقصد جبل المقطم حيث كان ينفرد بنفسه ؛ لذلك نجد العالم المسيحى يحيى بن سعيد ، يقول إن حاله صارت غير بعيدة من حال بختنصر ملك بابل الذى صارت البرارى مأوى له كالوحوش ؛ وزادت أظافيره ، فأشبهت مخاليب العقاب ، وطال شعره كالأسد جزعاً على إبادته هيكل الرب الأورشليمى ؛ ولذلك أصاب يحيى حين شخّص مرض الحاكم بأنه صِنْف من سوء المزاج اليابس المُمْرِض في دماغه أحدث له ضرباً من ضروب الماليخوليا وفساد الفكر ، فاحتاج في مداواته منه إلى جلوسه في دهن البنفسج وترطيبه به[3] .

(١) نفس المصدر ص ١١٣ ا . (٢) نفس المصدر ص ١٢٤ ا .
(٣) يحيى بن سعيد ص ١٢٧ ب — ١٢٨ ا .